حمزة بن عبد المطلب

أسد الله، وسيد الشهداء

كانت مكّةُ تَغِطُّ فى نومها، بعد يوم مُلِئ بالسعى، وبالكدّ، وبالعبادة، وباللهو..

والقُرشيون يتقلّبون فى مَضاجعهم هاجعين... غير واحد هناك يَتَجَافَى عن المضْجَع جَنْبَاه، يأوِى إلى فراشه مبكرًا، ويستريح ساعات قليلة، ثم ينهض فى شوق عظيم؛ لأنه مع الله على موعد، فيعْمَدُ إلى مُصَلّاه فى حجرته، ويظل يناجى ربه ويدعوه.. وكلما استيقظت زوجته على أزيز صدره الضّارع وابتهالاته الحارَّة المُلِحَّة، وأخذتْهَا الشفقة عليه، ودعته أن يرفُق بنفسه، ويأخذ حظه من النوم - يجيبها ودموع عينيه تُسابقُ كلماته:

«لقد انقضى عهدُ النوم يا خديجة»..!!!

لم يكن أمره قد أرَّق قريشًا بعد، وإن كان قد بدأ يشغل انتباهها؛ فلقد كان حديث عهد بدعوته، وكان يقول كلمته سِرًّا وهَمْسا.

كان الذين آمنوا به يومئذ قليلين جدًّا..

وكان هناك مِن غير المؤمنين به مَن يحمل له كل الحب والإجلال، ويطوى جوانحه على شوق عظيم إلى الإيمان به والسير فى قافلته المباركة. لا يمنعه سوى مُواضعات العُرف والبيئة، وضغوط التقاليد والوراثة، والتردُّد بين نداء الغروب، ونداء الشُّرُوق.

من هؤلاء كان حمزة بن عبد المطلب.. عم النبى صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة.

* * *

كان «حمزة» يعرف عَظَمَةَ ابنِ أخيه وكمالَه.. وكان على بينة من حقيقة أمره، وجوهر خصالِه..

فهو لا يعرفه معرفة العم بابن أخيه فحسب.. بل يعرفه معرفة الأخ، والصَّديق... ذلك أن الرسول وحمزة من جيل واحد،

وسِنٌّ متقاربة.. نشأا معًا، ولعبا معًا ، وتآخيا معًا، وسارا معًا على الدرب من أوله خطوة خطوة..

ولَئِن كان شباب كل منهما قد مضى فى طريق - فأخذ «حمزة» يزاحم أندادَه فى نيل طيبات الحياة، وإفساح مكان لنفسه بين زعماء مكة وسادات قريش.. فى حين عكف «محمد» على أضواء روحه التى انطلقت تُنير له طريق الله وعلى حديث قلبه الذى نأى به من ضوضاء الحياة إلى التأمّل العميق، وإلى التهيؤ لمصافحة الحق وتلَقِّيه..

نقول: لَئِنْ كان شباب كل منهما قد اتخذ وجْهةً مُغايرة، فإن «حمزة» لم تغب عن وعيه لحظةً من نهار فضائلُ تِرْبِه وابنِ أخيه.. تلك الفضائل والمكارم التى كانت تحِل صاحبها مكانًا عليًّا فى أفئدة الناس كافَّةً، وترسم صورة واضحة لمستقبله العظيم.

فى صبيحة ذلك اليوم، خرج «حمزة» كعادته.

وعند الكعبة وجد نَفَرًا من أشراف قريش وسادتها فجلس معهم، يستمع لما يقولون..

كانوا يتحدثون عن «محمد»...

ولأول مرة رآهم «حمزة» يستحوذ عليهم القلق من دعوة ابن

أخيه.. وتظهر فى أحاديثهم عنه نبرة الحقد، والغيظ، والمرارة.

لقد كانوا من قبل لا يُبالون، أوهُمْ يتظاهرون بعدم المبالاة والاكتراث

أما اليوم، فوجوههم تموج موجًا بالقلق، والهمِّ، والرغبة فى الافتراس.

وضحك «حمزة» من أحاديثهم طويلا.. ورماهم بالمبالغة، وسوء التقدير...

وعقّب أبو جهل مؤكدًا لجلسائه أن «حمزة» أكثر الناس علمًا بخطر ما يدعو إليه «محمد» ولكنه يريد أن يُهَوِّن من الأمر حتى تنام قريش، ثم تصبح يومًا، وقد ساءَ صبَاحُها، وظهر أمرُ ابن أخيه عليها..

ومَضَوْا فى حديثهم يُزَمْجِرُون، ويتوعدون.. و«حمزة» يبتسم تارة، ويمتعض تارة أخرى، وحين انفضَّ الجمع وذهب كُل إلى سبيله، كان «حمزة» مُثقَل الرأس بأفكار جديدة، وخواطر جديدة، راح يستقبل بها أمر ابن أخيه، ويُناقشه مع نفسه من جديد...!!!

* * *

ومضت الأيام، ينادى بعضها بعضًا ومع كل يوم تزداد هَمْهَمةُ قريش حول دعوة الرسول..

ثم تتحوَّل الهمهمة إلى تحرُّش، و«حمزة» يرقُب الموقف من بعيد..

إن ثباتَ ابن أخيه لَيَبْهره... وإن تفانيه فى سبيل إيمانه ودعوته لَهُوَ شىْء جديد على قريش كلها، برغم ما عُرِفَتْ به من تفانٍ وصمود..!!

ولو استطاع الشك يومئذ أن يخدع أحدا عن نفسه فى صدق الرسول وعظمة سجاياه، فما كان هذا الشكُّ بقادر على أن يجد إلى وعى «حمزة» مَنْفَذًا أو سبيلا..

فحمزةُ خير مَن يعرف محمدًا - من طفولته الباكرة.. إلى شبابه الطاهر.. إلى رجولته الأمينة السَّامِقَة..

إنه يعرفه كما يعرف نفسه، بل أكثر مما يعرف نفسه. ومنذ جاءَا إلى الحياة معًا.. وترعْرَعا معًا.. وَبَلَغا أشُدَّهُمَا معًا.. وحياة محمد كلها نقية كأشعة الشمس..!! لا يذكر حمزة شبهة واحدة ألَّمت بهذه الحياة.. لا يذكر أنه رآه يومًا غاضبًا، أو قانِطًا ، أو طامعًا، أو لاهيًا، أو مهزوزًا..

وحمزةُ لم يكن يتمتع بقوة الجسم فحسب، بل وبرجاحة العقل، وقوة الإرادة أيضًا..

ومن ثَمَّ لم يكن من الطبيعى أن يتخلف عن مُتابعة إنسان يعرف فيه كل الصدق وكل الأمانة.. وهكذا طوى صَدْره إلى حين على أمر سيتكشَّف فى يوم قريب..

* * *

وجاء اليوم الموعود...

وخرج «حمزة» من داره، مُتوشحًا قَوْسه، مُيَمِّمًا وجهه شَطْرَ الفلاة ليمارِس هوايته المحببة، ورياضته الأثيرة - الصيد.. وكان صاحب مَهارة فائقة فيه..

وقضى هناك بعض يومه.. ولما عاد من قَنَصِه، ذهب كعادته إلى الكعبة ليطوف بها قبل أن يَقْفِل راجعًا إلى داره.

وقريبًا من الكعبة، لَقيته خادم لعبد الله بن جُدْعان...

ولم تكد تبصره حتى قالت له:

«ياأبا عُمَارة.. لو رأيت ما لَقى ابنُ أخيك محمد آنفًا، من أبى الحكَم بن هِشام.. وجَدَه هناك جالسًا، فآذاه، وسَبَّه، وَبَلَغ منه ما يَكْرَه»..

ومضت تشرح له ما صنع أبو جهل برسول الله..

واستمع حمزة جيدًا لقولها، ثم أطرق لحظة، ثم مد يمينه إلى قوسه فَثَبَّتَهَا فوق كتفه.. ثم انطلق فى خُطًا سريعة حازمة صَوْب الكعبة، راجيًا أن يلتقى عندها بأبى جهل.. فإن هو لم يجده هناك، فسيُتَابِعُ البحث عنه فى كل مكان حتى يُلاقيه..

ولكنه لا يكاد يبلغ الكَعبة، حتى يُبصر أبا جهل فى فِنائها يتوسطُ نفَرًا من سادة قريش..

وفى هدوء رهيب، تقدم حمزة من أبى جهل، ثم استلَّ قوسَهُ وهَوَى بها على رأس أبى جهل فَشَجَّه وأدمَاه، وقبل أن يُفيق الجالسون من الدهشة، صاح حمزة فى أبى جهل:

«أَتَشْتُم محمدًا، وأنا على دِينه أقولُ ما يقول..؟! ألا فَرُدَّ ذَلك عَلَىَّ إن استطعت»..

وفى لحظة، نَسىَ الجالسون جميعًا الإهانة التى نزلت بزعيمهم أبى جهل والدم الذى ينزِفُ من رأسِه، وشغلتهم تلك الكلمة التى حاقَتْ بهم كالصاعقة.. الكلمة التى أعلن بها «حمزة» أنه على دين «محمد» يرى ما يراه، ويقول ما يقوله..

أحمزةُ يُسْلِم..؟؟

أعَزُّ فِتْيان قريش وأقواهُم شكيمة..؟؟

إنها الطَّامَّة التى لن تملك قريش لها دفعًا.. فإسلام حمزة سيغرى كثيرين من الصَّفْوةِ بالإسلام، وسيجد «محمد» حوله من القوة والبأس ما يُعَزِّز دعوته ويشدُّ أزْرَه، وتصحو قريش ذات يوم على هدير المعاول تُحطم أصنامها وآلهتها..!!

أجَلْ.. أسلَم حمزة، وأعلن على الملأ الأمرَ الذى كان يطوى عليه صدره، وترك الجمعَ الذَّاهِل يَجْتَر خيبة أمله، وأبا جَهل يَلْعق دماءَه النازفة من رأسه المشجوج.. ومدَّ حمزة يمينه مرة أخرى إلى قوسه فَثَبَّتها فوق كَتِفه، واستقبل الطريق إلى داره فى خطواته الثابتة، وبأسِه الشديد..!

* * *

كان حمزة يحمل عقلاً نافذًا، وضميرًا مستقيمًا..

وحين عاد إلى بيته، ونَضَا عنه متاعب يومه، جلس يفكر، ويُدير خواطره على هذا الذى حدث من قريب.. كيف أعلن إسلامه.. ومتى..؟؟

لقد أعلنه فى لحظةٍ من لحظات الحَمِيَّة، والغضب، والانفعال..

لقد ساءه أن يُساءَ ابن أخيه، ويُظلَم دون أن يجد له ناصرًا،

فغضب له، وأخذتْه الحميَّةُ لشرف بنى هاشم، فَشَجَّ رأس أبى جهل وصرخ فى وجهه بإسلامه...

ولكن، هل هذا هو الطريق الأمثل لكى يغادر الإنسان دين آبائه وقومه.. دين الدهور والعصور.. ثم يستقبل دينًا جديدًا لم يختبر بعد تعاليمه، ولا يعرف عن حقيقته إلا قليلا..

صحيح أنه لا يشك لحظة فى صدق «محمد» ونزاهة قصده.. ولكن أيمكن أن يستقبل أمرؤٌ دينًا جديدا، بكل ما يفرضه من مسئوليات وتبعات، فى لحظة غَضَب، مثلما صنع حمزة الآن..؟؟

لقد كان يطوى صدره على احترام هذه الدعوة الجديدة التى يحمل ابن أخيه لواءها..

ولكن، إذا كان مقدورًا له أن يكون أحد أتباع هذه الدعوة، المؤمنين بها، والذَّائدين عنها.. فما الوقت المناسب للدخول فى هذا الدين..؟

لحظةُ غَضَب وحَميَّة..؟ أم أوقاتُ تفكير ورَوِية..؟؟

وهكذا فرضت عليه استقامة ضميره، ونزاهةُ تفكيره أن يُخضع المسألة كلها من جديد لتفكير صارم ودقيق..

وشرَع يفكر.. وقضى أيامًا، لا يهدأ له فيها خاطر.. وليالىَ

لا يرقَأُ له فيها جَفْن..

وحين نَنْشُد الحقيقة بواسطة العقل، يفرض الشك نفسه كوسيلة إلى المعرفة..

وهكذا، لم يكد حمزة يستعمل عقله فى بحث قضية الإسلام، ويوازن بين الدين القديم، والدين الجديد، حتى ثارت فى نفسه شكوك أزْجاها الحنين الفِطرىُّ الموروث إلى دين آبائه.. والتهيب الفِطرى الموروث من كل جديد..

واستيقظَتْ كل ذكرياته عن الكعبة، وآلهتها، وأصنامها.. وعن الأمجاد الدينية التى أفاءتها هذه الآلهة المنحوتة على قريش كلها، وعلى مكة بأسرها..

وبدا الانسلاخ من هذا التاريخ كله.. وهذا الدين القديم العريق.. هُوّةً تتعاظَمُ مُجْتازَها..

وعجب «حمزة» كيف يتسنى لإنسان أن يُغادر دين آبائه بهذه السهولة وهذه السرعة.. وندم على ما فعل .. ولكنه واصل رحلة العقل.. ولما رأى أن العقل وحده لا يكفى لجأ إلى الغيب بكل إخلاصه وصِدْقه..

وعند الكعبة، كان يستقبل السماء ضارعًا، مبتهلا، مستنجدًا

بكل ما فى الكون من قدرة ونور؛ كى يهتدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم..

ولْنُصْغ إليه وهو يروى بقية النبأ فيقول:

«.. ثم أدركنى الندم على فراق دين آبائى وقومى.. وبتُّ من الشك فى أمر عظيم، لا أكْتَحِل بنوم..

«ثم أتيت الكعبة، وتضرَّعتُ إلى الله أن يشرح صدرى للحق، ويُذهبَ عنى الريْب.. فاستجاب الله لى وملأ قلبى يقينًا..

«وغدوتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما كان من أمرى . فدعا الله أن يثبت قلبى على دينه...».

وهكذا أسلم «حمزة» إسلام اليقين..

* * *

أعز الله الإسلام بحمزة... ووقف شامخًا قويًّا يذود عن رسول الله. وعن المستضعفين من أصحابه..

ورآه أبو جهل يقف فى صفوف المسلمين، فأدرك أنها الحرب لا محالة، وراح يُحرض قريشًا على إنزال الأذى بالرسول

وصحبه، ومضى يُهَيِّئُ لحرب أهلية يشفى عن طريقها مَغايِظَه وأحقاده..

ولم يستطع حمزَةُ - طبعًا - أن يمنع كل الأذى.. ولكن إسلامه مع ذلك كان وقايةً ودرعًا. كما كان إغراء ناجحًا لكثير من القبائل التى قادها إسلام حمزة أولا. ثم إسلام عمر بن الخطاب بعد ذلك إلى الإسلام فدخلتْ فيه أفواجًا..!!

ومنذ أسلم «حمزة» نذَر كل عافيته. وبأسه . وحياته، لله ولدينه حتى خلع النبى عليه هذا اللقب العظيم:

«أَسَدُ الله، وأَسَدُ رسوله»..

وأول سرِيَّة خرجْ فيها المسلمون للقاء عدو، كان أميرها حمزة...

وأول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين، كانت لحمزة..

ويوم التَقى الجمعان فى غزوة «بَدْر» كان أَسَدُ الله وأَسَدُ رسوله هناك يصنع الأعاجيب..!!

* * *

وعادت فُلول قريش من بدر إلى مكة تتعثر فى هزيمتها

وخيبتها.. ورجع أبو سفيان مخلوع القلب، مطأطئ الرأس. وقد خلّف على أرض المعركة جُثَثَ سادة قريش، من أمثال أبى جهل.. وعُتبة بن ربيعة.. وشيبة بن ربيعة.. وأمية بن خلَف. وعُقبة بن أبى مُعيط.. والأسود بن عبد الأسد المخزومى.. والوليد بن عتبة.. والنضر بن الحارث.. والعاص بن سعيد.. وطعمة بن عَدِى.. وعَشرات مثلهم من رجال قريش وصناديدها.

وما كانت قريش لتتجرع هذه الهزيمة المنكرة فى سلام.. فراحَتْ تُعِدُّ عُدّتها، وتحشد بأسَها ويأسَها؛ لتثأر لنفسها ولشرفها ولقتلاها..

وصمَّمت قريش على الحرب..

* * *

وجاءت غزوة «أُحُد» حيث خرجت قريش على بَكْرة أبيها، ومعها حُلفاؤها من قبائل العرب، بقيادة أبى سفيان مرة أخرى.

وكان زعماء قريش يَهْدِفون بمعركتهم الجديدة هذه إلى رجُلين اثنين: الرسول عليه صلاة الله وسلامه.. وحمزة رضى الله عنه وأرضاه..

أجل.. والذى كان يسمع أحاديثهم ومؤامراتهم قبل الخروج

للحرب، يرى كيف كان «حمزة» بعد الرسول، بيت القصيد وهَدَفَ المعركة..

ولقد اختاروا قبل الخروج، الرجل الذى وكلوا إليه أمر حمزة، وهو عبد حَبَشى، كان ذا مهارة خارقة فى قَذْف الحَرْبة.. جعلوا كل دوره فى المعركة أن يتصيَّد «حمزة» ويُصَوِّب إليه ضربةً قاتلة من رمحه، وحذروه من أن ينشغل عن هذه الغاية بشىء آخر، مهما يكن مصير المعركة واتجاه القتال.

ووعدوه بثمن غال وعظيم - هو: حُرِّيته.. فقد كان الرجل واسمه «وَحْشىّ» عبدًا لجُبير بن مُطْعَم.. وكان عم جُبَيْر قد لقى مصرعه يوم بَدْر فقال له جُبَيْر:

«اخرج مع الناس، وإن أنت قتلتَ حمزة فأنت عتيق»... !

ثم أحالوه إلى «هند بنت عُتْبة» زوجة أبى سفيان لتزيده تحريضًا. ودَفْعا إلى الهدف الذى يريدون..

وكانت هند قد فقدت فى معركة «بدر» أباها، وعمها، وأخاها، وابنها.. وقيل لها إن «حمزة» هو الذى قتل بعض هؤلاء، وأجْهَزَ على البعض الأخر..

من أجل هذا كانت أكثر القرشيين والقرشيَّات تحريضًا على الخروج للحرب، لا لشيء إلا لتظفر برأس حمزة مهما يكن الثمن الذى تتطلبه المغامرة..!!

ولقد لَبِثَتْ أيامًا قبل الخروج للحرب، ولا عمل لها إلا إفراغ كل حقدها فى صدر «وَحْشِيٍّ» ورسم الدور الذى عليه أن يقوم به..

ولقد وعدته إن هو نجح فى قتل حمزة بأثمن ما تملكه المرأة من متاع وزينة - فلقد أمسكت بأناملها الحاقدة قُرطها اللؤلؤى الثمين وقلائدها الذهبية التى تزدحم حول عنقها، ثم قالت وعيناها تحدّقان فى وحْشىّ:

«كُلُّ هذا لك، إن قتلت حمزة»..!!

وسالَ لُعاب وَحْشىٍّ .. وطارت خواطره توَّاقَةً مُشْتاقَةً إلى المعركة التى سيربح فيها حريته، فلا يصير بَعْدُ عبدًا أو رقيقًا، والتى سيخرج منها بكل هذا الحلى الذى يُزين عُنق زعيمة نساء قريش، وزوجة زعيمها، وابنة سيِّدها..!!

كانتْ المؤامرة إذن.. وكانت الحرب كلها تريد «حمزة» رضى الله عنه بشكل واضح وحاسم.

* * *

وجاءت غزوة أُحد...

والْتَقى الجيشان.. وتوسط «حمزة» أرض الموت والقتال، مرتديًا لباس الحرب.. وعلى صدره ريشة النعام التى تعود أن يزين بها صدره فى القتال..

وراح يصول ويجول، لا يريد رأسًا، إلا قطعه بسيفه، ومضى يضرب فى المشركين، وكأنَّ المنايا طَوْعُ أَمْرِه، يقذف بها من يشاء فتصِيبه فى صَمِيمه..!!

وصال المسلمون جميعًا حتى قاربوا النصر الحاسم.. وحتى أخذت فُلول قريش تنسحب مذعورة هاربة.. ولولا أن ترك الرماة مكانهم فوق الجبَل، ونزلوا إلى أرض المعركة ليجمعوا غنائم العدو المهزوم.. لولا تركُهم مكانهم وفَتْحُهم الثغرة الواسعة لفرسان قريش لكانت «غزوة أُحُد» مقبرة لقريش كلها: رجالها.. ونسائها.. بل وخَيْلها.. وإبلِها..!!

لقد دَهَم فرسانها المسلمين من ورائهم على حين غفلة، وأعملوا فيهم سيوفَهم الظامِئة المجنونة.. وراح المسلمون يجمعون أنفسهم من جديد، ويحملون سلاحهم الذى كان بعضهم قد وضعه حين رأى جيش قريش ينسحب ويُوَلى الأدبار.. ولكن المفاجأة كانت قاسية وعنيفة.

ورأى «حمزة» ما حدَث فضاعف قوته ونشاطه وبلاءَه..

وأخذ يضرب عن يمينه وشماله.. وبين يديه ومن خَلْفِه.. و«وَحْشِىٌّ» هناك يَرْقُبه، ويتحيَّن الفرصة الغادرة ليوجِّه نحوه ضَرْبته..

وَلْنَدَعْ «وَحْشِيًّا» يصف لنا المشهد بكلماته:

[... وكنتُ رجلا حَبَشِيًّا، أَقْذِفُ بالحربة قَذْفَ الحبشة، فَقَلَّمَا أُخطئ بها شيئًا... فلما الْتَقى الناس خرجتُ أنظر «حمزة» وأتَبَصَّرُه حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجَمَل الأوْرَق.. يهُدُّ الناسَ بسيفه هَدًّا، ما يقف أمامه شىء.. «فو اللّهِ إنى لأَتَهَيَّأُ له - أريده، وأستتر منه بشجرة لأتقحَّمَهُ أو لِيَدْنُوَ منى، إذْ تقَدَّمنى إليه «سباعُ ابن عبد العُزَّى». فلما رآه حمزة صاح به: هَلُمَّ إلَىَّ يا ابن مُقَطِّعَة البُظور. ثم ضربه ضربة فما أخطأ رأسه..

«عندئذ هَزَزْتُ حَرْبَتى، حتى إذا رَضيتُ منها دفعتها فَوَقَعَتْ فى ثُنَّتِه حتى خَرجَتْ من بين رجليه.. ونَهض نحوى، فَغُلب على أمره ثم مات..

«وأتيتُه فأخذتُ حربتى، ثم رجعتُ إلى المعسكر فقعدتُ فيه، إذ لم يكن لى فيه حاجة - فقد قتلتهُ لأُعْتَق...]

ولا بأس فى أن نَدَعَ «وحشيًّا» يكمل حديثه:

[فلما قدمْتُ مكَّة أُعْتِقت، ثم أقمتُ بها حتى دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فهربت إلى الطائف..

«فلما خرج وفدُ الطائف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُسْلِم تَعَيَّنْ علىَّ المذاهب. وقلت: ألْحَق بالشام، أو اليمن، أو سواها...

«فواللّهِ إنى لفى ذلك من هَمِّى إذ قال لى رجل: ويْحَكَ... !! إن رسول الله، واللّهِ لا يَقْتل أحدًا من الناس يدخل دينه...

«فخرجتُ حتى قَدِمْت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فلم يَرَنى إلا قائمًا أمامه أشهد شهادة الحق. فلما رآنى قال: أوَحْشِيٌّ أنت..؟ قلت: نعم يا رسول الله.. قال: فحدِّثْنى كيف قتلت حمزة، فحدثْتُه.. فلما فَرَغْتُ من حديثى قال: وَيْحك.. غَيِّبْ

عنى وَجْهَك.. فكُنتُ أتنكَّب طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان؛ لئلا يرانى حتى قبضه الله إليه..

«فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذَّاب صاحب اليمامة خرجْتُ معهم، وأخذتُ حربتى التى قتلتُ بها حمزة... فلما التقى الناس رأيتُ مسيلمة الكَذَّاب قائمًا، فى يده السيف، فتهيَّأتُ له، وهزَزْتُ حربتى، حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه فوقَعَتْ فيه..

«فإن كُنتُ قد قتلت بحربتى هذه خير الناس وهو حمزة.. فإنى لأرجو أن يغفر الله لى إذْ قتلتُ بها شرَّ الناس مُسَيْلِمَةَ]...

* * *

هكذا سقط أَسَدُ الله وأَسَدُ رسوله، شهيدًا مجيدًا...!!

وكما كانت حياتهُ مُدَوِّيةً، كانت موتته مُدَوِّيةً كذلك...

فلم يكتف أعداؤه بمقتله.. وكيف يكْتفون أو يَقْنعون، وهم الذين جَنَّدوا كل أموال قريش وكل رجالها فى هذه المعركة التى لم يريدوا بها سوى الرسول وَعَمِّه حمزة...

لقد أمرت «هند بنت عُتبة» زوجة أبى سفيان.. أمَرت

«وَحْشِيًّا» أن يأتيها بكبد حمزة.. واستجاب الحبشى لهذه الرغبة المسعورة.. وعندما عاد بها إلى هند كان يناولُها الكبد بيمناه، ويتلقى منها قرطها وقلائدها بيُسْراه، مكافأة له على إنجاز مهمته..

وَمَضَغَتْ هند بنت عتبة الذى صرعه المسلمون ببدر، وزوجة أبى سفيان قائد جيش الشرك والوثنية.. مَضَغَتْ كبد حمزة. راجيةً أن تشفى تلك الحماقة حقدها وَغِلّها، ولكن الكَبدَ استَعْصَتْ على أنيابها. وَأَعْجَزتْها أن تُسيغَها. فأخرجتها من فمها، ثم عَلتْ صَخرة مرتفعة، وراحت تصرخ قائلة:

نَحنُ جَزيناكُم بيوم بَدْرِ ... والحربُ بعد الحربِ ذاتُ سُعْرِ
ما كان عن عُتْبَةَ لى من صَبْر ... ولا أخى، وعَمِّهِ، وَبِكْرى
شَفَيْتُ نفسى وَقَضَيْتُ نَذْرى ... أزاح وَحْشِىٌّ غَليلَ صدرى

وانتهت المعركة، وامتطى المشركون إبِلَهم، وساقوا خَيْلَهم قافلين إلى مكة..

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه معه إلى أرض المعركة لينظر شهداءها..

وهناك فى بطن الوادى، وإذ هو يتفحص وجوه أصحابه الذين

باعوا الله أنفسهم، وقدَّموها قرابين مَبرورة لربهم الكبير. وقف فجأة.. ونظر. فَوَجم.. وضغط على أسنانه.. وَأسْبَلَ جفْنيه..

فما كان يتصور قط أن يهبط الخلق العربى إلى هذه الوحشية البشعة. فيُمَثلَ بجثمان ميت على الصورة التى رأى فيها جثمان عمه الشهيد المجيد «حمزة بن عبد المطلب» أسَدِ الله.. وسيد الشهداء..

وفتح الرسول عينيه التى تألق بريقهما كوَمْضِ القدَر.. وقال وعيناه على جثمان عمه:

«لَن أُصابَ بِمثلك أبدًا..
وما وَقَفْتُ موقفًا قطُّ أغيظَ إلىّ من مَوْقفى هذا..»

ثم التفت إلى أصحابه وقال:

«لولا أن تحزن صَفِيَّة - أخت حمزة - ويكُون سُنَّة من بعدى، لَتركْتهُ حتى يكُون فى بُطون السِّباع وحواصِل الطير.. وَلَئِنْ أظْهَرَنى الله على قريش فى مَوْطن من المواطن، لأمَثلَنَّ بثلاثين رجلًا منهم..»

فصاح أصحاب الرسول:

«واللّهِ، لَئِنْ أظفرنا اللّهُ بهم يومًا من الدهر، لَنُمَثلَنَّ

بهم، مُثْلَةً لم يُمثِّلها أحدٌ من العرب..!!»

ولكن الله الذى أكرم «حمزة» بالشهادة، يكرمه مرة أخرى بأن يجعل من مصرعه فُرصة لدرس عظيم يحمى العدالة إلى الأبد. ويجعل الرحمة حتى فى العقوبة والقصاص واجبًا وَفَرْضًا..

وهكذا لم يكد الرسول صلى الله عليه وسلم يفرغ من إلقاء وعيده السالف حتى جاءه الوحى وهو فى مكانه لم يبرحه بهذه الآيات الكريمة:

﴿ادْعُ إلى سبيلِ رَبِّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وَجَادِلْهم بالتى هى أَحْسَن، إن رَبَّك هو أعلمُ بِمَنْ ضَلَّ عن سبيله، وهو أعلَمُ بالمهتدين.

وإن عَاقَبْتُمْ فعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقبْتُمْ به، ولَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين.

وَاصْبِرْ، وما صَبْرُك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تَكُ فى ضيق مِمَّا يمكُرون.

إن الله مع الذين اتقَوْا، والذين هُمْ مُحْسِنون..﴾

وكان نزول هذه الآيات، فى هذا الموطن، خير تكريم لحمزة الذى وَقَعَ أَجْرُهُ على الله..

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُحبه أعظم الحب، فهو كما ذكرنا من قبل لم يكن عَمَّه الحبيب فحسب..

بل كان أخاه من الرضاعة...

وتِرْبَه فى الطفولة..

وَصَدِيقَ العمر كله...

وفى لحظات الوداع هذه، لم يجد الرسول صلى الله عليه وسلم تحيةً يُوَدِّعُه بها خيرًا من أن يُصَلِّىَ عليه بعدد شهداء المعركة جميعًا..

وهكذا حُمل جثمان «حمزة» إلى مكان الصلاة على أرض المعركة التى شهدت بلاءه، واحتضنت دماءه.. فصلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ثم جيء بشهيد آخر، فصلى عليه الرسول.. ثم رُفع وَتُرِك حمزة مكانه، وجيء بشهيد ثالث فوضع إلى جوار حمزة وصلى عليهما الرسول..

وهكذا جيء بالشهداء.. شهيد بعد شهيد.. والرسول صلى الله عليه وسلم يصلى على كل منهم وعلى حمزة معه حتى صلى على عَمِّه يومئذ سبعين صلاة...

* * *

وينصرف الرسول من المعركة إلى بيته، فيسمع فى طريقه نِسَاءَ بنى عبد الأشْهَل يَبْكين شهداءَهُن، فيقول عليه الصلاة والسلام من فَرْط حنانه وَحُبِّه:

«لكِنَّ حَمزَةَ لا بَوَاكِىَ لهُ».. !!

ويسمعها «سعد بن معاذ» فيظنُّ أن الرسول صلى الله عليه وسلم يطيب نفسًا إذا بكَت النساء عَمَّه، فيسرع إلى نساء بنى الأشْهَل ويأمُرُهُنَّ أن يبكين حمزة، فيفعَلْنَ.. ولا يكاد الرسول يسمع بكاءَهن حتى يخرج إليهن، ويقول:

«ما إلى هذا قَصَدْت، ارْجِعْنَ يرحمكن الله، فلا بُكَاءَ بعد اليوم».

ولقد ذهب أصحاب الرسول يتبارون فى رثاء «حمزة» وتمجيد مناقبه العظمى..

فقال حسَّان بن ثابت فى قصيدة طويلة له:

دَعْ عنك دارًا قد عفا رَسْمُها ... وابْكِ على حَمزَةَ ذى النائل
اللَّابس الخيل إذا أحْجَمَتْ ... كَاللَّيث فى غابته، الباسِل
أبيضُ فى الذروة من هاشم ... لم يَرْ دون الحق بالباطِل
مَالَ شَهيدًا بَيْنَ أسيافكم ... شُلَّتْ يدا وَحْشِىّ مِنْ قاتل

* * *

وقال عبد الله بن رَوَاحَة:

بكَتْ عيني وحقَّ لها بُكَاها ... وما يُغْنِى البكاء ولا العويل
عَلَى أسَدِ الإله غَداةَ قالوا: ... أَحَمْزةُ ذاكُم الرجُل القتيل
أُصيبَ المسلمون به جميعًا ... هناك وقد أُصيبَ به الرسول
أبا يَعْلى، لكَ الأركان هُدَّت ... وأنتَ الماجدُ البَرُّ الوصول

* * *

وقالت صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخت حمزة:

دعاهُ إلهُ الحقِّ ذوالعرش دعوةً ... إلى جنَّة يحيا بها، وسرور
فذلك ما كُنَّا نُرجِّى ونرتجى ... لحمزةَ يومَ الحشرِ خيرَ مصير
فوالله لاأنْسَاك ماهَبَّتِ الصَّبا ... بكاءً وحزنًا، مَحْضرى وَمَسِيرى
على أسدِ اللّهِ الذى كان مِدْرَهًا ... يذودُ عن الإسلام كلَّ كَفُور
أقولُ وقد أعْلَى النعيُّ عشيرتى ... جزى اللّهُ خيرًا من أخ ونَصِير

على أن خيرَ رِثاء عطَّر ذكراه كانت كلمات الرسول له حين وقف على جثمانه ساعةَ رآه بين شهداء المعركة وقال:

«رحمةُ اللّهِ عليك، فإنك كنت - ما عَلِمْتُ - وَصُولا للرحم، فَعُولاً للخيرات»...

* * *

لقد كان مُصاب النبى صلى الله عليه وسلم فى عمه العظيم «حَمزة» فادحًا.. وكان العَزَاءُ فيه مُهمة صعبة.. بَيْدَ أنّ الأقدار كانت تَدَّخر لرسول الله أجملَ عَزَاء.

ففى طريقه من «أُحُد» إلى داره مرَّ عليه الصلاة والسلام بسيدة من بنى دينار استشهد فى المعركة أبوها، وزوجها، وأخوها..

وحين أبْصَرَت المسلمين العائدين من الغزو، سارعتْ نحوهم تسألهم عن أنباء المعركة..

فنَعَوْا إليها الزوج.. والأب.. والأخ..

وإذا بها تسألهم فى لهفة:

«وماذا فعلَ رسُولُ اللّهِ».. ؟؟

قالوا:

«خيرًا...

هو بحمد الله كما تُحِبين»... !!

قالت:

«أَرُونيه، حتى أنظُرَ إليه».. !!

ولبثوا بجوارها حتى اقترب الرسُول صلى الله عليه وسَلم، فلما

رأته أقبلت نحوه تقول:

«كلُّ مُصيبة بعدك. أمرها يَهُون»... !!

أجَلْ...

لقد كان هذا أجْمَلَ عَزاء وأبقاه...

ولعلَّ الرسُول صلى الله عليه وسلم قد ابتسم لهذا المشهد الفذِّ الفريد، فليس فى دنيا البذْل، والولاء، والفِدَاء لهذا نظير...

سيدة.. ضعيفة، مسكينة، تفقد فى ساعة واحدة أباها، وزوجها، وأخاها... ثمَّ يكون رَدُّها على النَّاعى لحظة سماعها النبأ الذى يهد الجبال:

«وماذا فَعَلَ رسُول الله».. ؟؟!!

لقد كان مشهدًا أجاد القدَرُ رَسْمَه وتوقيتَهُ ليجعل منه للرسول الكريم صلى الله عليه وسَلم عَزَاءً أىَّ عَزَاء... فى أسَدِ اللّهِ، وَسَيِّدِ الشُّهدَاء... !!